أثر الأغانى فى النفس

تغنت بصوت أعجمى فهيجت من الشرق ما كانت ضلوعى أجنت

قاله شاعر عربى ، شجاه ترجيع طير على فنن ، وأهاج حنينه غناء الطير على الغصون ؛ فما باله إذا استمع مغنى ملهم ، أو مطرب مجيد ؟ إذاً لا تتجرت عاطفته ، ولهلل وكبر ، إذ أن فى الغناء الجيد من القوة والسلطان على النفوس ، ما يجعلها تهيم فى أودية الخيال فقد تسمع الأغنية الحماسية ، فتستثير شجونك وتهزك هزا عنيفا ، وتبعث فى نفسك الأمل ، وتشيع فيها الرجاء ، وقد تسمع إلى الخطيب المفوه ، فيثير حماستك ، وتستنهض وطنيتك ، وتعجب به أيما إعجاب ، ولكنه لا يبلغ من نفسك ما تبلغه أغنية وطنية ، أو نشيد حماسى ، يبلغ قول الخطيب إلى عقلك ، فيعجبك البلاغته ، وتقدر فنه الكلامى ؛ أما الأغنية ، فانها تتسلل إلى نفسك ، وتمتزج بروحك ، فتلهب نفسك حماسة ، وتشعل فيك نار الوطنية الصادقة ، فسمع إلى الخطيب فمى قوله بعقولنا ، أما الغناء فانى العاطفة هى التى تلتقطه ، فتسلمه إلى النفس فتؤثر فيها قبل أن يفحصه العقل ؛ الخطيب يحادث العقول ، أما المغنى فانه يناجى العاطفة ، وما أسرع أن تجيب العاطفة الى القول الرقيق ، الذى يبحث عن مواطن الضعف من الانسان ، فينصب حوله شباكه ، فلا يلبث المرء أن يجد نفسه فى الحبائل مقتنعا لا يستطيع منها فكاكا . والانسان فى هذه الحياة يكد ويتعب ويقاسى من الآلام الشىء الكثير ، فاذا ما أخلد إلى الراحة ، واستمع الى صوت جميل ، يردد أغنية عذبة ، شعر بغبطة وطمأنينة ، واستجمع قواه ، وجدد نشاطه فيقبل بعد ذلك على عمله ، بنفس راضية منشرحة ، ويسير فى كفاحه بقلب ملىء بهجة وسروراً ؛ ألم تر إلى العمال المجهدين كيف أنهم بترديدهم أناشيدهم ، يسهلون العمل ، ويقللون من التعب ، ويخففون العبء الثقيل ؟ النشيد الاجماعى يسليهم ، ويوجه أفكارهم إلى النغم والتوقيع ، بينما العمل جار ، أيديهم تحركه ، وكأن لعملهم تنهض به ، ولا يلبث أن ينتهى وهم بصوبانه غير شاعرين ، وكذلك كل ذى عمل ، إذا شعر بضجر من كثرة عمله ، فانه يدعى ويجلس لسماع أغنية عذبة ؛ وما هى إلا فترة السماع ، حتى يعود إليه ، وكأن قوة سحرية مرت فى جسمه ، وأيدلت عمله نشاطاً ، وبسمته وتجربه همة وقوة .

وقد أنشئت فى البلاد المتحضرة ، مستشفيات لمعالجة الأمراض العصبية ، تتناول المرضى بأنواع من العلاج ، قد تستبعد الصلة بينها وبين المرض ، فبعض المرضى يعالج

بمباشرة الرياضة البدنية في الهواء الطلق ، وبعض آخر يعالج بوجوده في أمكنة يغلب عليها لون معين . وأهم انواع العلاج لهذه الأمراض الموسيقى والغناء ، فقد ثبت بالتجربة أن الموسيقى تهدىء الأعصاب المضطربة ، وتسكن النفوس الثائرة . ولأجل أن يكون تأثير الأغاني شاملا طبقات الأمة كلها : يجب أن تتناول الأغاني جميع الأغراض ، فهي الآن تكاد تكون وقفا على الغرام والحنين . وما تتصل بذلك من معان ، وليس فيها إلا النادر القليل في الوطنية ، يجب أن توضع أغاني للعمال في أعمالهم ، وللصناع في مصانعهم ، للقوم أثناء عملهم ، وللجند أثناء تمرينهم ، يجب أن توضع أناشيد للطلبة في مدارسهم في حبة الوطن ، وفي تحيتهم في دروسهم ، يرددونها في أوقات فراغهم ، وأناشيد لفرق الجيش يشدونها في الظعن وفي الاقامة ، وأناشيد لصغار الأطفال ، يلقنونها في رياضهم ، ويلقنونها من الفرق التي تمرن في المتنزهات العامة . ولم يقف تأثير الأغاني عند الانسان فقط ، بل تعداه إلى الحيوان الأعجم ، ولذلك نقرأ في كتب التاريخ ، أن العرب كانوا يستحثون إبلهم على السير بالغناء ، وكانت الابل تطمئن إلى صوت الحادي ، وتنتعش بحدائه ، فيستخفها الطرب ، وينشطها اشتياق النغم فتجد في السير غير عابئة بوعثاء الطريق ، وكذلك فرق الجيش ، فالخيل تسير بنظام موافق لانغام الموسيقى التي تحدوها ، وإذا ذهبت إلى ملعب من ملاعب (السرك) رأيت عجبا ، حصانا تظنه لا يعقل ، تؤثر فيه النغمات ، فيهتز لها ، ويميل معها ، إذا علت علا بحركته ، وإذا انخفضت انخفض معها ، مسايرا لها ، طروبا بها ، ويبلغ منك العجب أشده وأنت ترى أفعى كبيرة الحجم ، بشعة المنظر ، قد استغلت يد ماهرة ، فراضها بالموسيقى ، فدربها أحسن تدريب ، وعلمها ألعابا وحركات تقوم بها عندما تسمع انغاما خاصة ، ومثل الحصان والأفعى كثير من الحيوانات ، فقد كان للموسيقى فضل في تدريبها لعمل تمرينات رياضية خاصة ، وفي ذلك دليل على قوة سلطان الموسيقى حتى على الحيوان الأعجم

وبعد ذلك هو التأثير النفسي ، وهناك تأثير أدبي ، لا يقل أهمية عن سابقه ، تتناول الأغاني لغة الجمهور بالصقل والتهذيب ، لأنه كثيرا ما يرددها ، وبها من الألفاظ الصحيحة والتعبيرات الجيدة ، ما ينطبع في الأذهان من تكراره ، وإذا تحدثت إلى شخص من عامة الناس ، وجدته يستعمل ألفاظا صحيحة ، وجملا مستقيمة ، يدهشك صدورها منه وهو مع ذلك يستعملها في كلامه عفوا من غير قصد ، والفضل راجع إلى الأغاني التي أفادته هذه الرقة وذلك التهذيب .

هذا ، وإن الروح تطلب غذاءها ، وما غذاؤها إلا الأغاني والموسيقى .

عبد العزيز بك بدر
مدرس بمدرسة المعلمين والمعلمات